

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمد ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله،

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).

"أما بعد، فإن خدر الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور
محدثاتها، وكل بدعة ضلالة"^(٤).

أما بعد،

فإن الشعر يعد - بحق - من أروع الألوان الأدبية التي أنتجتها قريحة الإنسان؛ لما
ينطوى عليه من المجالات الفنية الخصبة التي لا تزال تنبض بالحياة والحيوية.

١- سورة آل عمران : الآية ١٠٢ .

٢- سورة النساء : الآية ١ .

٣- سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠، ٧١، وهذه هي خطبة الحاجة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمها أصحابه .
"يراجع: صحيح مسلم، شرح النووي، ١٥٧/٢/٣، دار الريان للتراث ١٩٨٧م .

٤- صحيح مسلم، شرح النووي، ١٥٣ /٢/٣، متفق عليه، واللفظ لمسلم.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وإنما كان الشعر كذلك؛ لأنه يستمد أفكاره ومضامينه من واقع البيئة التي يحيا فيها الأديب، معبراً عن الآمال والآلام، من خلال انصهاره في بوتقة الواقع الذي يتلقى الأديب وحيه من خلاله.

وهذا مبنى على أساس من الصلة القوية التي تربط بين الأدب بوجه عام والحياة في شتى مجالاتها، وهذا يعنى أن أدب كل أمة صورة واضحة المعالم لها في شتى ظروفها وأحوالها .

ولهذا، فليس بمستغرب أن يأتى الشعر المصرى فى القرن العشرين – بما يتحقق فيه من مبدأ المعاصرة – حاملاً بين طياته كثيراً من القضايا الوطنية والسياسية والاجتماعية، والثقافية، والمشكلات الشخصية السائدة، ثم يعكس ظلال الوعى القومى تجاهها .

ومن ذلك ندرك: أن كثيراً من الشعراء كانوا ينظمون أشعارهم، وقد وضعوا أمام عيونهم قضايا بلادهم، ومشاكل وطنهم، واتخذوا من هذا الشعر وسيلة للإصلاح والتقويم، وبت الوعى، وإيقاظ الهمم الغافلة .

ولعل مما يعبر عن هذه النظرة قول الشاعر "إبراهيم ناجى" (١):

قل للذى يبغى الإصلاح لقومه بنبيل صنع أو شريف جهاد
بالطب أو بالشعر أو بكليهما كل الجهود فداء هذا الوادى!
لا خير فى قلم إذا هولم يكن حراً طهوراً كالشعاع الهادى

فالتب والسعر سواء فى إصلاح المجتمع، الأول يصلح من فساد الأبدان والثانى يصلح من فساد الأفكار الشائعة فى المجتمع، والهدف بناء أمة قوية متماسكة .

والحق، أن ظروف الحياة السياسية فى القرن العشرين، بما وجد فيها من احتلال أجنبى بغيض، ثم من فرض للحماية على البلاد، ثم مشكلة الامتيازات الأجنبية، وما كان

١- الأعمال الكاملة ج ٣/ ١٤٠ "الكامل التام".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

من قهروا إذلال للشعب المصري، وما تبع ذلك من ظهور المشاكل الاجتماعية، والقضايا الفكرية التي غصت بها الحياة المصرية.

كل ذلك كان دافعا قويا إلى صب الشعراء المصريين جام غضبهم وسخطهم على عدوهم ومحتل أرضهم، من خلال منظوماتهم الشعرية الساخنة، والتي بدت "السخرية" فيها فنا أدبيا متميزاً.

وقد كان هذا دافعا قويا إلى اختياري لموضوع: "السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين" موضوعا لبحثي⁽¹⁾ لنيل درجة الدكتوراه.

- وكان من دوافع اختياري هذا الموضوع أيضا: أن المصريين كانوا في هذه الآونة - القرن العشرين - في أشد الحاجة إلى إيقاظ كل ذرة في كياناتهم لينظروا إلى حجم الأخطار التي تحيط بهم من كل جانب على أيدي أعدائهم المحتلين، الذين يتربصون بهم الدوائر "فكانت السخرية" هي المنظار الذي يرى المصريون - من خلاله - أعداءهم، ويعوفون أساليبهم الخسيسة.
- ومن الدوافع: أن الناس قد جرت العادة - فيما بينهم - أن ينظروا إلى السخرية نظرة امتعاض وتقزز، وخاصة أن القرآن الكريم قد نهى عنها نهيا صريحا في سورة الحجرات، فأردت أن أكشف اللثام عن حقيقة قد تخفى عن كثير من الناس، وهي أن السخرية التي نهى عنها القرآن الكريم: هي ذات الطابع الجماعي الذي يهدم المجتمع الإسلامي ويزعزع وحدته، وهي سخرية تسيطر عليها دوافع خبيثة بهدف الإساءة إلى الآخرين، وهي عادة ما تكون محملة بالحق والكراهية.

١- البحث بهذا التحديد يسير في ظلال ثلاثة أطر:

(أ) إطار مضموني: وهو دراسة شعر السخرية من نواحيه المتعددة.

(ب) إطار فنوي: وهو ما يتمثل في اختيار الشعراء المصريين فقط.

(ج) إطار زمني: وهو ما يتمثل في فترة القرن العشرين.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

أما السخرية الأدبية – التي هي محل دراستنا – فهي أسلوب نقدي له ميزته الفنية، ويعد في واقع الأمر بناء للحياة، وحارسا للمثل العليا فيها^(١).

ويُضاف إلى ما ذكرته من قبل – في أهمية هذا الموضوع: أنه يعد تمثيلا وتصويرا صادقا لكثير من الظواهر التي ظهرت في القرن العشرين، والتي كانت نتاجا لمجموعة من العوامل السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية والمسائل الشخصية.

• هذا، وقد واجهتني صعوبة في أثناء العمل في هذا البحث، وقد عانيت بسببها كثيرا، وتمثلت هذه الصعوبة في: أن أغلب الشعراء المصريين في القرن العشرين لم يكونوا يهتمون بوضع تاريخ لقصائدهم، وقد اضطررت ذلك إلى الرجوع إلى أكثر من طبعة للديوان الواحد – إن وجد ذلك – للنظر والتأكد، كما ألجأتني ذلك إلى الرجوع إلى كثير من الدراسات والشرح السابقة، فقد تهديني إلى تاريخ أو تفتح لي بابا يوصل إليه.

يُضاف إلى ذلك: أن بعض القصائد كانت تحمل محدثا معينا، فيمكن إرجاعه إلى زمنه من خلال النظرة التاريخية الشاملة، فالقصائد التي تشيع فيها الروح الوطنية ضد الاحتلال – مثلا – هي من النتاج الشعري السابق لعام ١٩٢٢م والقصائد التي تشيع فيها الروح السياسية – مثلا – فهي من النتاج الشعري التالي لهذه المرحلة .. وهكذا

• ومن الضروري أن أشير – هنا – إلى بعض الدراسات التي سبقت هذا البحث وكان لها عليه فضل كبير، وإحسان عظيم لا يمكن إنكاره.

ومن هذه الدراسات ما يلي:

(١) الفكاهاة في الأدب أصولها وأنواعها، د. أحمد محمد الحوفى، مكتبة نهضة

مصر بالفجالة ١٩٥٦م.

١- سيأتى – إن شاء الله – تفصيل لهذه القضية في الفصل الأول من الباب الأول في هذا البحث.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

- (٢) الفكاهة فى مصر، د. شوتى ضيف، سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال العدد/٨٣، ١٩٥٨م.
- (٣) السخرية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، د. نعمان محمد أمين طه، الطبعة الأولى، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر ١٩٧٨م.
- (٤) السخرية فى أدب المازنى، د. حامد عبده الهوال، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.
- (٥) السخرية فى شعر البهاء زهير، د. محمد حسين عبد الحليم، الطبعة الأولى الناشر: دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٩٠م.
- (٦) الهجاء فى الأدب الأندلسى، د. فوزى سعد عيسى، دار المعارف "بدون تاريخ".
- (٧) الأدب الساخر، د. نبيل راغب، الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠م).

أما المنهج الذى اتبعته فى هذه الدراسة، وفرضته طبيعة الموضوع، فهو "المنهج التاريخى" وهو منهج يحاول الكشف عن مدى تأثير العمل الأدبى وصاحبه بالوسط ومدى تأثيره فيه، كما أنه يساعد فى دراسة الأطوار التى مر بها فن من فنون الأدب، أولون من ألونه.. لنستدل منها على لون التفكير السائد فى عصر من العصور^(١).

وقد أفادت الدراسة من هذا المنهج: فى التقسيمات الزمنية التى تشير إلى تطور فن السخرية عبر الفترات التاريخية المتلاحقة، مراعين فى ذلك التدرج الزمنى التصاعدى للأحداث، حتى فى ذكر الشواهد ذاتها داخل الموضوع الواحد، راعيت هذا الأمر أيضا، اللهم إلا فى القليل النادر الذى استدعى المقام فيه تقديم شاهد لشاعر أقرب زمننا على شاعر آخر أقدم منه فى الزمن.

١- راجع فى ذلك: النقد الأدبى أصوله ومناهجه، سيد قطب/١٤٦ الطبعة السابعة، دار الشروق بالقاهرة ١٩٩٣م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ومما هو ضروري: أن أشير - هنا - إلى أن "المنهج التاريخي" لم يستقل بنفسه استقلالاً تاماً في هذا البحث ، وإنما كان لغيره من المناهج نصيب، وإن كان هذا النصيب ضئيلاً بجانب نصيب المنهج التاريخي .

فقد ظهر "المنهج النفسي" في محاولة الربط بين النص وصاحبه، وبيان أثر العوامل الطارئة، أو الخارجية على نفسية الأديب، وانعكاس ذلك على أدبه .

كما ظهر "المنهج الفني" في جمع النصوص وتذوقها، ومحاولة الكشف عما تنطوي عليه من قيم فنية، سواء أكانت قيماً شعورية أم تعبيرية .

ومع ذلك ، فقد بقيت الغلبة للمنهج التاريخي الذي قامت على أسسه ومبادئه هذه الدراسة .

• هذا، وقد قام هذا البحث على مقدمة وثلاثة أبواب ، ينضوى تحت لواء كل باب منها عدة فصول:

أما الباب الأول: فيحمل عنوان: "السخرية في الشعر العربي القديم: تحديد المصطلح

وضبط الدلالة" ويحتوى على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مقدمات مهمة حول فن السخرية .

الفصل الثاني: السخرية في الشعر العربي القديم .. النشأة والتطور

الفصل الثالث: السخرية في مصر الإسلامية عبر عصورها التاريخية.

أما الباب الثاني: فيحمل عنوان: "الاتجاهات الموضوعية للسخرية في

الشعر المصري في القرن العشرين" ويحتوى على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: السخرية في المجال الوطني والسياسي .

الفصل الثاني : السخرية في المجال الاجتماعي .

الفصل الثالث : السخرية الشخصية .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

أما الباب الثالث: فيحمل عنوان: "التصوير الأدبي".

ويحتوى على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الألفاظ والأساليب في شعر السخرية.

الفصل الثاني: الصورة الشعرية الساخرة.

الفصل الثالث: الموسيقى الشعرية.

أما بعد، فهذا كتابي المتواضع، قد وضعته بين يدي قرائى الأعزء ، ليقولوا فيه
كلمتهم ، فإن كنت مصيبا فبفضل من الله وعونه، وإن كنت مقصرا فمن نفسى وضعفى
وحسبى أننى بشر..... وآخردعوانا أن الحمد لله رب العالمين

سعيد أحمد غراب